# العلامة اللغوي

## الاب أنستاس ماري الكرملي

بعث الي بهذه المقالة صديقي الكاتب الاستاذ محمد فائق توفيق المدرس بمطبعة دار السلام ببغداد ، وضمنها صورة للعلم الكبير الاب أنستاس بعد موته بساعات ، وطلب الي أن أضمها الى احدى مجلاتنا المصرية ، فآثرت بها مجلة « المقتطف » لانها شبيهة المجلات العربية ، ولانها كانت مسرحاً لابحاث فقيد اللغة الكرملي ...

ولقد كان بيني وبين الاب البحاثة مداعبة ومراسلات منذ سنوات ، وسأعود الى الحديث عنه فيما يأتي من أعداد المقتطف ، وفيما يلي نص المقالة :

أحمد الشرباصي

الاب أنستاس ماري الكرملي مسجّى

وعلى حين غفلة طوت يد الأقدار ابن العربية البار، والعلامة اللغوي الاب أنستاس ماري الكرملي . وما هي الا عشية أو ضحاها حتى أصبح أثراً بعد عين ، وميتاً يرثى بعد أن

كان حيًّا يرجى ، فخف ذلك البحر الزاخر ونضبت تلك العين الفيّاضة بفيض العلم والمعرفة وانطفأ ذلك الطود الأشم وسكت هزيم رعده وصوته الجهوري وانطوت تلك الصحراء الواسعة من الحلم والكمال وسقطت تلك الثمار الدانية من التواضع والجلال وسكنت الريح الصرصر العاتية في الخصومات والنقد ، ولم يجب ذلك النسيم العليل من الأين وإليك . فخسرت العربية أيما خسران .

حقًّا إن القول ليقصر عن ادراك مدى هذا الرجل العظيم اعلمه وعمله . وإن المرء ليقف عاجزاً عن اداء حق علاّمتنا المفضال الذي خدم العربية والعلم أكثر من ستين عاماً كان خلالها مثالاً للرجل الكامل العامل الغواص المنابر الذي تزوّد بالعلم الصحيح والخلق الرضي والأدب الجم ، فكان سبّاقاً لا يبلغ شأوه أحد ولا يصل الى مقامه صعيد .

***

ولد رحمه الله في بغداد سنة ١٨٦٦ في اليوم الخامس من آب ( أغسطس ) وتوفي في بغداد أيضاً في المستشفى الملكي صباح يوم الثلاثاء في اليوم السابع من شهر كانون الثاني ( يناير ) سنة ١٩٤٧ فيكون عمره ثمانين سنة وخمسة أشهر ويومين .

وتعلم من اللغات أكثر من عشرة ، فقد أتقن الفرنسية واللاتينية واليونانية والعبرية ، والسامية ، والكلدانية ، والتركية ، والفارسية ، والانكليزية ، والسريانية ، وقليل من الإيطالية وكان يفهم البرتغالية . وقد تعلم الحبشية والاسبانية ثم نسيهما ولم تسنح له الفرصة لتعلم الألمانية وغيرها ، ذلك لأنه استدعته الكنيسة في بغداد حيث كان يدرس في فرنسة .

وقد حوت خزانة كتبه ستة عشر ألف كتاب منها ألف وخمسمائة كتاب مخطوط . وكان كثير العناية بكتبه يغلفها بقماش متين أبيض ، وإن أكبر نكبة أصابته سرقة خزانته هذه في الحرب العظمى الأولى أيام كان أسيراً في الأناضول — وهناك تعلم اللغة التركية — وعند عودته اضطر الى شراء كثير منها بأغلى الأثمان واشترى أكثرها من سارقيها بوساطة آخرين ، وإن لكل كتاب لديه قصة طريفة ، فهو يحدثك عن شرائه وعن تعرفه بسالمه ومساومته له حتى يصل الكتاب الى خزانته :

وقد جاب الآفاق والأقطار لجمع هذه الكتب والبحث والتنقيب والدرس ، وزار معظم الممالك في القارات الثلاث : آسية وأوربة وأفريقية ، ولم يتسنّ له زيارة أميركة ، وأستراليا ؛ وعند ما يحدثك عن كتاب مفقود فكأنه يحدثك عن أعز ولد له قد فقد . وفي الحقيقة ،

لا أحسب أنه كان يحزن لفقد ولد — لو كان ذا ولد — مثل حزنه على كتاب مفقود من كتبه النادرة .

وأعظم مؤلفاته معجمه الكبير « المساعد » الذي اشتغل به زهاء ست وعشرين عاماً ، أي منذ الطباعة عشرة من سنه ، وعند ما سئل : وهل انتهى هذا القاموس ؟ أجاب : « وهل تنتهي اللغة العربية ؟ أنا الذي انتهيت » .

وتقضت فصي سنواته الأخيرة بمآسي الأوصاب والأوجاع ، ويحتمل الآلام في ظروف قاسية بين أناس لا يرحمون ، ولم يجد من يخدمه أو يُعنى به ، إلاّ أهل بيت له صلة قرابة بهم أسكنوه معهم — بعد أن هدم الدير الذي يسكن فيه — فأحسنوا خدمته ورعايته ، وذلك قبل سفره الأخير الى فلسطين .

ولقد أقيمت له حفلات الترحيب في فلسطين في زيارته الأخيرة لها ، وكان يذكرها بالشكر والتقدير للقائمين بها . ولقد عولج هناك وهو في أسوأ الظروف القاسية واحتواه أناس يحقدون عليه ويكرهونه ، إذ هم غرباء عن هذا البلد ، وما له معزّ منهم ، فجرى بينه وبينهم ما أثار أعصابه فنكس وعاوده المرض أشد من قبل ، فقررت الحكومة العراقية نقله إلى المستشفى الملكي ومعالجته على حسابها . وبقي هناك حتى وافاه الأجل المحتوم بانفجار في الدماغ .

زرته في المستشفى أسأله عن صحته وحاله مع بعض الاخوان . فقال « إنك ترى كيف أصبحت وبأنني أشكو من شلل في كفي اليمنى ورجلي اليمنى وإني لا أحسهما كخرقة لا أحس بهما ولا أستطيع تحريكهما ولا أقوى على السير على رجلي اليمنى أو الكتابة والمسك باليد اليمنى . ومع ذلك فأني لا زلت أردد عاطساً إلهي العظيم ، كلما زرتني ألماً زدتك حبّاً . فقلت له خيراً ودعوت له بالشفاء .

وكان يسير في طريق الشفاء فقد زرناه مساء الاثنين السادس من كانون الثاني ( يناير ) أي قبل موته بساعات فكان صحيحاً معافىً ، قوي النبرات لطيف الكلام — كعادته — مرحاً يلقي النكتة إثر الأخرى ويقول الدعابة ويتبعها بغيرها . وهكذا قضينا الوقت ونحن نحسب أنه سيغادر المستشفى بعد أيام قلائل . فكان لنعيه وقع شديد في نفوسنا . وكان موته مفاجأة لنا أذهلتنا وأطارت رشدنا .

وإذا ذكر الاب أنستاس الكرملي فلا بد وأن يذكر معه « مجلس الجمعة » وما مجلس الجمعة هذا ؟

كان من عادة الأب الراحل أن يعقد اجتماعاً صباح كل جمعة من السنة الثامنة من الثانية عشرة يقبل فيه زائريه ، وتعد إحدى غرف الدير لهذا الغرض ، ولا عداً فيما يتعلق بالبحث والعمل ولا يقبل زائراً إلا إذا كان معه على وعد سابق وفي وقت معين

* * *

وكان يختلف الى مجلسه جماعة من المشتغلين بالعلم والأدب ومن مواطنيه وعارفين فضله فيدور البحث في مواضيع شتى من لغة وأدب وعلم وتاريخ وفن — ما عدا السياسة والدين — وفي كل ذلك الأب رأي فيه ونصيب وافر منه . وكثيراً ما كان يحتدم الجدال بين حضرة الأب والأستاذ عباس العزاوي فيثور العزاوي ويقابل الأب هذه الثورة برحابة صدر وطول بال . فما هي إلا لحظات حتى يعود الصفاء ويحل الابتسامة محل التجهم وكأن لم يكن شيء ، وما كان الأستاذ العزاوي يثور هذه الثورات العصبية وقد بلغ السادسة من أعمارهما مبلغاً كبيراً في حضرة الأب ومجلسه ، لولا الصداقة المتينة التي تربطهما والتقارب النسبي في السن ، أما غيره فيلجأ الى الهدوء والأدب والاحترام في مناقشاته مع الأب ويجادل بلطف ، فإما أن ينتصر أو أن ينزل عن رأيه . وفي معظم الأحيان يكون للأب القول الفصل والحكم القاطع .

ومن أظرف ما كان يحدث في هذا المجلس ، المنافسة التي كانت تحدث بين المرحوم الأب والأستاذ العزاوي في الكتب ، فللأخير أيضاً خزانة كتب طائرة ، فهذا يقول عندي الكتاب الفلاني وهو يتقصك وذاك يجيب بأنه خير لديّ منه مما لا أملكه ، وهكذا . ولقد يسأل بعضهم بعضاً عن الجديد في خزانة كتبه أو ما جدّ في عالم التأليف .

ويتلو على مسامع الأب كل ما خطر من مقال أو بحث من موضوع أو نظم من شعر في مختلف المواضيع ، ولا يفوته خطأ إلا نبه عليه . وتعرض عليه أسئلة مختلفة فيجيب عنها جواباً شافياً صريحاً لا لبس فيه ولا ابهام مع الدليل والبرهان والحجة .

ولقد كان الجميع موضع اهتمام الأب وعنايته فيسأل عن كل واحد منهم سؤال الأب الحنون والأخ الكبير ، ويعتب على من يغيب عن مجلسه وربما أغلظ في العتاب إن لم يكن الغياب عن عذر مشروع أو مانع معقول .

ولا يقدم في مجلسه شيئاً مما يقدم في المجالس الأخرى كالقهوة أو الشاي والسيكارة أو ما شاكلها . ولقد قال مرة لمعالي الدكتور ابراهيم حاكف الألوسي — في إحدى زياراته له —

وكان إذ ذاك وزيراً للمعارف : « يا صاحب المعالي ، الرَّبْع [1] هنا يعرفون أنه ليس في مجلسي نماي ولا قهوة حتى ولا سيكارة لخاتك عالم » . فضحك معاليه وقال هذا مجلس علم وأدب ويكفينا ذلك .

وقال لمعاليه أيضاً : إن أكثر الحاضرين في هذا المجلس من رجال المعارف من معلمين ومفتشين فهم أتباعك . فسرَّ معاليه وقال : أنا أيضاً طالب علم في مجلسك .

ولقد تخون الذاكرة ، فيطول البحث في موضوع أو عن كلمة فلا يهتدي الى موضعها أو مظنتها ، ثم يقبل الدكتور مصطفى جواد ، وهو من أصفيائه وملازميه فيحل المشكلة بأن يذكر علم المصدر أو التاريخ حسب المطلوب والحاجة ، وذلك بما وهب من ذاكرة قوية وحافظة عجيبة .

ولئن تحادثت في ذكر أفراد مجلسه يطول بي الكلام ويطول . ولكن إن أنسَ فلا أنسى ذلك الفتى الألمعي الذي كان زينة المجلس الأستاذ علي غالب العزاوي المحامي شقيق الأستاذ عباس العزاوي . وقد كفَّ بصره عند الكبر . فقد كان حلو الحديث والشمائل ، حاضر البديهة ، سريع النكتة ، رحباً لطيف المعشر ، ذا أخبار وأحاديث طلية ومسرَّة . وقد اغتالته يد أثيمة فات فقيداً .

وكانت طريقته في البحث والدرس علمية صحيحة لا يلتي الكلام على عواهنه ولا يقول القول جزافاً ولا يؤمن إلاَّ بما يثبت بالدليل والنص والتجربة .

وكان يحب من يحافظ على مواعيده ويتمسك بها في الوقت المحدد فإن اتفقت وإياه على موعد وجب عليك أن لا تخالفه وإلاَّ تعرضت لنقمته وتقده .

ومن عاداته أنه لا يهمل أي رسالة ترد إليه فيرد عليها في الحال بنفسه أو يكلف غيره إن أقعده عن ذلك مرض .

وكانت الروائح القوية تزعجه وتثيره وخاصَّة رائحة الخمرة فلا يقوى على شمها .

واحتفظ الى حين وفاته بقواه العقلية كاملة ومحدة بصره وقوة سمعه وبنبرات صوته القوي الجهوري ، وببداهته وقوة بنيته ، على الرغم من اضطلاح العلل عليه وخاصَّة في السنوات الأخيرة من حياته ، وعلى الرغم من قضائه الوقت بالدراسة والمطالعة والبحث .

ولقد كان دائب المطالعة والمراجعة حتى إنه ليقرأ الكتاب الواحد من المراجع المهمة

(١) الربع : بمعنى الاصحاب .

عدة مرات ، فترى مثلاً وقد كتب في نهاية كل جزء من أجزاء « تاج العروس » انتهيت من قراءته للمرة الثانية أو الرابعة ( أو أكثر ) تاريخ كذا . وهكذا الدأب في مصطفى كتبه وهل تحسب أنه يقرأ هذه الكتب قراءة عابرة ؟ — لا . إنه ليدقق ويحقق ويعلق ويصحح الخطوط الزرق تحت ما هو مغلوط فيه والخطوط الحمر تحت ما هو صحيح أو موافق رأيه .

وكان شديداً على خصومه عنيداً معهم — وما خصومه — إلا أعداء العربية والذين ليس لهم منها نصيب — ومع ذلك أدعياء فيها ، فيهزأ بهم ويتهكم وينعتهم بمختلف النعوت التي لا ترضيهم ، فإن كثرت أخطاء أحدهم مثلاً ، نسب كتابته أو قوله الى اللغة الشقنقاقية لغة — فريق من الجن — أو لغة واق الواق وهكذا مما لا تعيه الذاكرة .

ومع ذلك كنت تراه يشجع الناشئين ويأخذ بأيديهم ويبث فيهم روح الأمل ويبعث في نفوسهم الهمة ويثني عليهم ويرفع من قيمتهم ومنآتهم وإن لم يكونوا أهلاً لذلك .

* * *

وبعد فالحديث عن الأب أنستاس الكرملي كالحديث عن البحر أو الغيث الذي ينهمر ، طويل لا ينتهي ، وواسع لا يُحَدّ ، فقد كان أمة وحده وشخصية عجيبة غريبة يجب أن تؤلف عنه الكتب وتدرس سيرته . وكم كنت أود أن يزوره في حياته كل متكبر مغرور جبار ، ليأخذ منه دروساً في التواضع وكمال الخلق واللطف والأدب الجم وكرم الأخلاق .

وإن فقده لا يعوّض ، فقد ترك حبيبته اللغة العربية تلطم خدّها وتشق جيبها على من رماها عشرات السنين وأزلها من نفسه أسمى منزلة وأكرم مقام . وهي اليوم مفجوعة لا تجد له بديلاً ولا ترضى عنه عوضاً .

وإن بمرته تفرّق ذلك الجمع النظيم من طلاّب العلم والأدب ، ومن روّاد علمه ومرتشفي فيض علمه ومعرفته ، وفقد ملجأه الروحي الذي إليه يسكن .

أيها الأب الراحل الكريم ، إن فضلك علينا عظيم ، ونعمك جسيم ، وهيهات أن نستطيع رد هذا الفضل وما لا يدرك كله لا يترك جله . ويكفينا أننا سكبنا الدمع السخين على جنانك وما زلنا نسكبه كلما خطرت على بالنا ، وأنت ممثل في الخاطر دائماً . وإننا سنظل محتفظين بذكراك ، وناهجين على منهجك القويم ، وسائرين على خطتك . فنم هانئاً آمناً مطمئن البال . وعوض الله اللغة العربية خيراً . وعليك رحمة الله .

بغداد

محمد فائق توفيق